مع السيد جعفـر الحلّي فـــي

قصيــدة حســينيــة غــراء

(١٢٧٧ ــ ١٣١٥هـ)

حسن الشيخ حسين

قبل أن نلج حرم الحسين (ع) لنطل على رحابـه الفسـيحة وأعتابـه المقدسـة، مستنشقين عبق البطولة والشهادة، يطيب لنا أن نوطئ ببعض الإشارات الموحية بين يدي نص شعري مميز.. لنرى أن مفهوم (شاعر وقصيدة) في مصطلح أدب الطف له أكثر من دلالة مميزة أيضاً.

فالشعر مادته الشعور، يتصل بسلكٍ كهربي بما يحمل من إيقاع، وما ينبض به من توتر، يسريان في شريان الناظم وحنايا القصيدة؛ والقصيدة كما في "لسـان العـرب"، يراد بها الشعر التام، الذي قصده الشاعر قصداً، وجعله من باله، ورؤى فيه خـاطره، واجتهد في تجويده.

والطف هو ما أشرف وارتفع من أرض العرب على ريف العراق، أو دنا منـه، وأطفّ على الشيء بمعنى أطلّ، والطف طف الفرات، أي الشاطئ، وموقع الطف هـو ذاته كربلاء، الذي يصفه صاحب "معجم البلدان" بقوله: "أرض من ضاحية الكوفة فـي طريق البرية، وفيها كان مقتل الحسين بن علي (ع). وهي بادية قريبة من الريف، فيها عدة عيون ماء جارية". أما كربلاء، فهي كلمة منحوتة على ما يبـدو مـن مقطعين (كرب) بمعنى قرب و (لا) بمعنى إيل أي الله، فيكون معناها قرب الإله، كما هي فـي اللغة الآرامية.

وواقعة الطف تلك، حادثة فظيعة ومشهورة، فكأنما أشرفت وما زالت، على كـل موضع في الدنيا، حتى شابت نواصي الليالي وهي لم تشب.

وفي "أدب الطف" يقول السيد جواد شبر: "ليس في الدنيا وقعة كوقعـة الحسـين (ع)، هزت العالم هزاً عنيفاً، وهاجت اللوعة، واستدرت الدمعة، بل هي التي كونـت

هذا الأدب الثر والشعور الفياض، وخلقت أكبر عدد من الشعراء، وهكذا غطت ثـورة الحسين (ع) بسناها المشارق والمغارب، واستخدمت العقول والأفكار، فهي نور يتوهج في قلوب المسلمين، فيندفع إلى أفواههم مدحاً ورثاءً، وهي أنشودة العز في فم الأجيال، فتهز القلوب وتطربها، وتحيي النفوس بالعزائم الحية".

وهذا شاعر من شعراء الطف، زفته الحلة الفيحاء، فيما أثر عنـها مـن شـعراء وأدباء، يأتي في طليعتهم صفي الدين الحلي، ثم تتابعت السلسلة وصولاً إلـى السـيد حيدر الحلي، فالسيد جعفر الحلي الذي ترجم له السيد جواد شبّر فيمن ترجم من شعراء الطف، حتى بلغ بهم عشرة مجلدات، فإذا بشبَّر والأميني فرسا رهان، حيـث جمـع الشيخ عبد الحسين في "الغدير" ما ينوف على عشرة مجلدات، فبدا المؤلفـان كأنـهما يتسلقان جبلاً شامخاً، يحمل كل منهما راية الخلود في مجد القصيد، وليت شعري، هل يشهد العرب والأدب لمثل هاتين الحادثتين! وهل تكفي شهادة الشعر وحدها، ولـولا أن الشيعة ألهموا إحياء ذكرى عاشوراء كل عام كما يقول شاعرنا الحلي:

في كل عام لنا بالعشـر واعيـة ... تطيق الـدور والأرجـاء والسـككا

وكـل مسـلمة ترمـي بزينتـها ... حتى السماء رمت عن وجهها الحُبُكا

لقيل عن واقعة الطف أنها من مخترعات الشيعة وتخرصاتهم، ولقيلت فيها الظنون كما هو الحال في واقعة الغدير التي استقل بها النقل والعقـل دون الإحيـاء السـنوي المتجذر في الوجدان، كما هو بالنسبة إلى فاجعة الحسين (ع).

وإذا كان التنصل من واقعة الغدير أدى بما آل إليه أن يولّد في واقع المسـلمين، حادثة لا تقل عمقاً وأهمية عن "الغدير المغدور"، فإن التهاون في إحياء واقعة الطـف بقصرها على الإحياء الذي لا يثير الدمعة، ولا يولد الصدمة، هو المخاطرة بفقد صمام الأمان الوحيد في صيانة شريعتنا الغراء، وهذا نظير جـواب جـابر بـن عبـد الله الأنصاري لمن أنكر عليه إحياء ذكرى الطف في كل عام، فأجابه: "إنما نعمـد إلـى إحياء واقعة الطف كما ترى، كي لا يأتي من ينكر تلك الواقعة المشهودة كمـا أنكـر بعضهم واقعة الغدير".

النشأة والشاعرية

وشاعرنا الحلي هو السيد جعفر كمال الدين الحلي النجفي، وهو شـاعر مفلـق، وكان من حقه أن يطلق على ديوانه اسم "سحر بابل وسجع البلابل"، وكـانت وفاتـه فجأة في شعبان ١٣١٥هـ، وقد رثاه الكثير من العلماء منهم الشيخ عبد الحسين صادق العاملي، ومما كتبه عنه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قوله: "هو الشاعر الأريب، المفوّه، يتصل نسبه بيحيى ابن الحسين بن زيد الشهيد ابن علي بن الحسين (ع)، ولـد يوم النصف من شعبان سنة ١٢٧٧هـ في إحدى قرى الحلة تسمّى العذار مـن مـدن

العراق.. وهاجر منها إلى النجف قبل أن ينبت بعارضه العذار، وقد صادف هجرة السيد جعفر سوء حال الزمان، وضيق العيش، الذي لم يثنِ هذا الغلام الحدث عن طلب العلم في النجف وهو يستظل سماء القناعة، ويلتحف أبراد الفقر والفاقة، وما أحرّها من أبراد، ولكن بين جنبيه تلك النفس الشريفة والروح اللطيفة، والجذوة الوقادة، والشيم الهاشمية والشمائل العربية، فأخذ يختلف إلى مجالس العلم، وناهيك بالنجف يومذاك وما أدراك ما النجف.. البلدة التي جعلت مركزها باب مدينة العلم، فاستقت من ينبوعه، واستمدت من روحانيته.

برع السيد جعفر في نظم الشعر وهو دون الثلاثين، وأصبح من الشعراء المعدودين، الذين يتغنى الناس بشعرهم. تزوج إحدى كرائم قومه، وأصبح عائلاً، واشتدت وطأة الدهر عليه فعاد يحتلب درّة عيشه من ضرع قلمه وشق قصبته.

وإذا كان الشعر مرآة الشعور فاقرأه في هذه القصيدة وفي سواها مخترقاً المعاني، محلقاً في منظومه وأشعاره.

وإذا عرفنا أن الشاعر لم يعش سوى ثلاثين سنة ونيف، عرفنا أنه شاعر اختطفته الأقدار بعد أن دوّن اسمه في سجل الخلود.

وإليك أيها القارئ إحدى روائعه في الحسين (ع)، اختار لها وزن البسيط من البحور، ولكن بقافية صعبة الانقياد إلا لشاعر فذ من نظرائه.

بين يدي القصيدة الحسينية

أول ما يلفت نظرنا قوة المطلع وبراعة الاستهلال، لا سيما إذا اشتمل على التصريع، لتنفتح الأبيات على تعجب يتضمن اسم الله الأعظم، وناهيك به من أسلوب ألفناه في صيغ القسم، يذكرنا بمطلع إحدى قصائد السيد حيدر الحلي.

الله يا حامي الشريعة ... أتقرُّ وهي كذا مروعة؟!

ثم يردف الشاعر بالاستفهام التعجبي الموحي إلى ما يشبه الإعجاز الكوني، من الدم الجاري المسفوح في كربلاء وصل أثره إلى الأفلاك فأوقف حركتها وجريانها.

الله أي دمٍ في كربلاء سفكا ... لم يجر في الأرض حتى أوقف الفلكا

ثم يستتبع باستفهام إنكاري ليتطرق إلى ما جرى على آل الحسين (ع) من قِبَل "خيل الضلال" التي هتكت "ستر الهدى".

وأي خيل ضلالٍ بالطفوف عدت ... على حريم رسول الله فانتهكا

ولكي لا يقع الشاعر أسير الفاجعة، سرعان ما نهض منها موحياً بمعاني البطولة المتمثلة بالحسين (ع) وآله وأصحابه ليقول:

يوم بحامية الإسلام قد نهضت ... بها حميّة دين الله إذ تركا

وهنا يفتح الشاعر قوساً يوجز فيه خلفيات وقعة الطف، فهي لـم تحـدث هكـذا صدفة، بل مهدت لها الأحداث السابقة والمرافقة في ماضي المسـلمين وحـاضرهم، ويتمثل ذلك باختصار في انبعاث الجاهلية من جديد، متمثلة في التنكر للحـق واتبـاع سبيل الغي، وإذا كانت الرعية على مثال راعيها، فما تنتظر من المسلمين وقد تملكـهم رجل أقصى ما يريد من دنياه نهلة راح أو صبوة لكاعب حسناء، يمضي ساعاته بيـن زمر وعود، منهمكاً بالفحشاء. يقول الحلي متحدثاً عن أبي الشهداء (ع)، واصفاً حـال المسلمين في ظل حكم يزيد:

رأى بـأن سـبيل الغـي متبـع ... والرشد لم تـدر قـوم أيّـة سـلكا

والناس عادت إليـهم جاهليتـهم ... كأن من شـرع الإسـلام قـد أفكـا

وقـد تحكـم بالإسـلام طاغيـة ... يمسي ويصبح بالفحشـاء منـهمكا

ثم نستمع إلى الشاعر يطلق نداءً وكأنه استفهام إنكاري يتضمن الأسف والتحسـر واللوعة، يستحضر قادة المسلمين ورجالهم:

لم أدر أين رجال المسلمين مضـوا ... وكيف صـار يزيـد بينـهم ملكـا

العاصر الخمر من لؤم بعنصـره ... ومن خساسة طبع يعصـر الودكـا

أم كيف يسلم من شرك ووالـده ... ما نزهت حمله هنـد عـن الشـركا

لئن جرت لفظة التوحيد في فمـه ... فسيفه بسوى التوحيـد مـا فتكـا

وحسناً أن نتذكر أن الشاعر قد رسم صورتين متقابلتين علـى أرض المعركـة، ملمحاً إلى شخصية يزيد، تلك الشخصية الخليعة، بل إنه يتعجب كيـف صـار ذلـك المستهتر العاصر الخمر، ملكاً على المسلمين، بل أين أولئك الأفذاذ، وكيـف أخلـوا الساحة، أجل! لقد نكّل بهم حكام الجور، فأضحوا بين قتيل وسجين، فهذا حجـر بـن عدي أرداه معاوية لأنه لم يتبرأ من مولاه علي (ع)، وهذا عمار تقتله الفئة الباغية في صفين، وذاك محمد بن أبي بكر يغتاله عمرو بن العاص، ومالك الأشتر النخعي ذهـب إلى ربه بعد أن دس له السم أبو يزيد، ولا ننس ميثم التمار قتيل ابن زياد، أو المختـار الثقفي وسليمان بن صرد الخزاعي سجيني الأمويين، أو هانئ بن عروة الذي فتك بـه ابن سمية. أما من بقي من المؤمنين فقد ثبتوا مع الحسين (ع) أبطالاً ميامين شهدت لهم وقعة الطف بمداد من دمائهم الزكية، فكانوا شهداء على تلك الأمّة.

أما يزيد الذي وصفه الشاعر باللمحة الموجزة البليغة، فهو كما جاء فـي كتـاب "الأغاني" عن الأصمعي: "قال لقيط بن أيمن المحاربي: كان يزيد بن معاوية أول مـن سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنين، وأظهر الفتك، وشـرب الخمـر،

وكان ينادم عليها سرجون مولاه والأخطل، وكان يأتيه من المغنين سائب بن خاثر، فيقيم عنده، فيخلع عليه ويصله، فغناه يوماً:

يا للرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الأهل والنفر

أنّ الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام لثوبي لابس الغدر

فاعترته أريحية فرقص حتى سقط، ثم قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها، حتى لا يرى منه شيء، فطرح عليه الثياب والجباب والمطارف والخز حتى غاب فيها".

لقد أبدع الشاعر في أبياته التي وصف فيها حال الأمّة مشبهاً إياها بجسم عليل انتابته الأسقام الروحية، ودبّ الوهن في أوصاله؛ وتكمن المفارقة في أن هذا الطبيب الذي هو الإمام الحسين (ع) يتحتم عليه أن يموت من أجل حياة هذا الدين، وفي ذلك يقول الحلي:

قد أصبح الدين منه يشتكي سقماً ... وما إلى أحد غير الحسين شكا

فلم ير السبط للدين الحنيف شفاً ... إلا إذا دمه في كربلاء سفكا

وما سمعنا عليلاً لا دواء له ... إلا بنفس مداويه إذا هلكا

بقتله فاح للإسلام نشر هدى ... فكلما ذكرته المسلمون ذكا

وفي البيت الأخير يكمن السر في إحياء مأتم الحسين، هذا الإحياء المنقطع النظير، لأن إحياءه هو إحياء لدين محمد (ص)، فكلما ذكر سبط النبوة كلما ذكا ذلك النشر، وفاح نفح أريجه.

فالقصيدة تحفل باسم الحسين (ع) وتلهج بذكره، فهو حامية الإسلام، وهو السبط وفادي شرع والده، وهو الطبيب لروح هذه الأمّة، وهو الميت الذي ترك الألباب حائرة، وهو الخطيب المصقع الذي لم ينقطع خطابه، حتى اعتلى رأسه الشريف من فوق القنا الخطار.

نفسي الفداء لفادٍ شرع والده ... بنفسه وبأهليه وما ملكا

وموقفه في الحرب يذكر بموقف أبيه علي (ع) حيث يقول السيد جعفر:

أحال أرض العدى نقعاً بحملته ... وللسماء سما من قسطل سمكا

فأنقص الأرضين السبع واحدة ... منها وزاد إلى أفلاكها فلكا

لقد جرد هذا الثائر العظيم سيف الحق، وأوقد نار الوغى بذبال ذلك الحسام الصقيل، فأحال أرض العدى نقعاً وغباراً بحملته، فهو يذكرنا ببيت بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

بل إن شاعرنا الحلي يتجاوز تصوير بشار إلى ما هو أشد غرابة وعجبـــاً، فـــإذا برزت الصورة المتحركة المركبة القائمة على تعدد التشابيه بما يعبر عنـــه بالتشـــبيه التمثيلي تصبح استحالة عقلية، فقد تحوّلت الأرض إلى فضاء بعد أن غطاها الغبار، فلم تعد ترى وهذا هو معنى التحويل الكوني الذي افتتح به الشاعر قصيدتـــه، وتصويـــر الحلي أبلغ وأبدع من تصوير بشار لليل الذي تهاوى كواكبه، فهذا الليل المتحول عـــن النهار، يستعيد سناه ويستمد إشراقه من غرة الحسين (ع):

كسا النهار ثياب النقـــع حالكـــة　　لكـــن محيـــاه يجلـــو ذلـــك الحلكـــا

"ولولا ســـطوع محيـــا الحســـين　　لران علـــى الأرض ثقـــل الظـــلام"

ثم يعود الشاعر للموازنة والتحليل مقارناً بين بني هاشم وبني حرب، فالقوم ليسوا أكفاء القوم، وما حادثة كربلاء إلا صدى لما قبلها من غصب تراث محمد (ص) وبنيه، مذكراً بفدك، يقول الحلي:

يا ويح دهرٍ جنى بالطف بين بني　　محمـــد وبنـــي ســـفيان معتركـــا

حاشا بني فاطم ما القوم كفؤهـــم　　شـــجاعة لا ولا جـــوداً ولا نســـكا

لكنـــها وقعـــة كـــانت مؤسســـة　　من الأولي غصبوا من فـــاطم فدكـــا

ما ينقم الناس منهم غـــير أنـــهم　　ينهون أن تعبد الأوثـــان والشـــركا

إذا نظرنا إلى أبيات القصيدة، وجدنا أن المعجم الدلالي والحقل المعجمي، يفيضان بكلمات من مثل الضلال والغي والإفك والشرك والجاهلية والفحشاء والخساسة واللـــؤم من جهة، كما تزخر بنقائض هذه الصفات من مثل الرشد والتوحيد والجود والشـــجاعة والنسك، بما يمثل قطبي الصراع في الميدان واصطراع الحق مع الباطل.

تحتوي هذه القصيدة على جملة من المفارقات تعكس تأزم الواقـــع وبلوغـــه حـــد المأساة في حياة المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) وعشية كربلاء.

أبرز هذه المفارقات هي تملك شخص مثل يزيد وتحكمـــه فـــي شـــؤون الأمّـــة الإسلامية، هذه أدت إلى مفارقة ثانية هي أن يتطوع حفيد الرسالة ليكون طبيب هـــذه الأمّة، ولكن داء الأمّة لا يشفى إلا بمصرع هذا الطبيب، والمفارقة الثالثة أن المعركـــة التي ازدلف إليها الحسين (ع) غيرت من معالم الكون، فـــأنقصت عـــدد الأرضيـــن، وزادت في عدد السماوات، وذلك في إطار تصويري أبدع فيه الشاعر.

أما المفارقة الرابعة فهي أن تدنو الوحوش، وهي رمز القوة لتسلم على الحســـين (ع)، والليل يرمز إلى الخوف وانعدام الأمن، بينما تجول الخيول وهي الضعيفة نســـبياً على جسد الحسين نهاراً، والنهار رمز الإنارة، وهي صورة تجاوزية، وبما أن الحسين

(ع) وما قام به كان تخطياً وتجاوزاً للواقع، كان التعبير عن نهضته يقتضي الخـــروج عن اللغة المألوفة باستخدام المجاز الذي هو لغة داخل اللغة، كما عبر بعـــض النقـــاد والمحدثين، وإلا كيف نفهم الصورة التي عبّر عنها السيد جعفر الحلي بقوله:

يا ميتـــاً تـــرك الألبـــاب حـــائرة وفي العـــراء ثلاثـــاً جســـمه تركـــا

تأتي الوحوش له ليـــلاً مســـلمةً والقوم أجروا نهاراً فوقـــه الرمكـــا

(والرمك هي الخيول)، إذا قارناها بقول شاعر آخر:

تهابه الوحش لا تدنو لمصرعـــه وفي العـــراء ثلاثـــاً غـــير مقبـــور

فكل من هذين الشاعرين عبّر بطريقة مختلفة عن الصورة نفسها، وهـــي علاقـــة الجسد الشريف بأوابد الصحراء، وقيل أن يختم الشاعر قوله بما يشبه الدعـــاء علـــى أولئك السفاحين.

لا مرّت الريح في كوفـــان طيبـــةً والغيث لا حلّ في وادي الشآم وِكـــا

والوكاء هو الوعاء أو القربة يجعل فيها الماء.

ثم السلام على الهادي وعترتـــه ما ناحت الورق أو جفن الغمام بكـــى

وهكذا نجد الشاعر السيد جعفر الحلي يرسل أبياته علـــى ســـجيته، فـــي منـــاخ تصويري يقترب من الجو الملحمي أحياناً، ويؤدي معانيه دون تكلف لألوان البديع، إلا ما جاء عفواً وعلى السجية، ذلك الشاعر الذي عركته الحياة فعرّفته في شبيبته ألوانـــاً من المرارة والمعاناة، ليغادر هذه الدنيا في شرخ شبابه ومطلع كهولته، بعد أن أثـــرى أدبنا العربي بروائعه الخالدة.